مفهوم النقد الثقافي :

كثيرة هي المصطلحات والمفاهيم التي تتداولها الألسنة فتغدو لشيرعها وكأنها جزء من زادنا المعرفي، ولكن إذا ما اختبرها الباحث استعصت على الإمساك ونأت بجانبها عن أن تخضع لحد جامع مانع، ولعل الثقافة واحدة من هذه المصطلحات والمفاهيم، فالثقافة تقع بين منظورين: خاص، وعام، ولهذا فإن أية محاولة لتعريفها سوف يعتريها القصور والنقص، آية ذلك فأن الخصوصية التي تميز الثقافة تصل بها إلى حذ الانغلاق من حيث خصوصيتها الذاتية ومحليتها وزمنها التاريخي، ومهما حاولت الثقافة أن تتخلى عن خصوصيتها قصد الوصول إلى العالمية، فإنها تظل محدودة بمحليتها وينظمها التي تفرزها، وتغلقها على ذاتها أو على سياقاتها الذاتية في زمنها التاريخي و الثقافة في بعدها الآخر العام هي اسم لصيرورة عامة تخص تشكلات سبل الحياة ووسائطها، ومن هذا المنظور لعب مفهوم الثقافة دورا حاسما في تحديد وتعريف العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، وبهذا المعنى فإن الثقافة تحيط بعالم الفن، والخيال والأفكار، كما تحيط أيضا بالتشكلات البشرية حيث يكون الكل أكبر من مجموع العناصر، مما يصعب معه تعريف الثقافة بجانيبها الذاتي والعالم ما لم يدخل المرء في ضرب من التخمين الافتراضي الذي هو نفسه إفراز ثقافي.

وعلى الرغم من أن معظم دراسي الثقافة لم ينكروا انحياز الذات إلى ثقافتها واصطباغها بالون الشخصي، حتى وهي تحاول أن تتموضع، فإنهم لم ينكروا كذلك كليتها وشموليتها، أما الزوج الثاني لطرفي المسألة فهو النقد، فهل النقد جهد خارج الثقافة حتى نحاول تقييده بالثقافي؟.

النقد في الأصل جهد فكري وثقافي وعقلي وتأملي يبدأ بالتذوق وينتهي بالتحليل والتعليل، والممارسة النقدية هي ممارسة ثقافية بل ممارسة لأرقى أشكال الثقافة، فإذا كان الشاعر حسب "إليوت" "خلاصة حضارة"، فإن الناقد خلاصة الخلاصة لهذه الحضارة. لقد بنيت كل الاتجاهات النقدية على خلفيات معرفية: فكرية، وفلسفية، وجماليةن وكلها تشكل جزءا من الثقافة، فالتسمية أصلا "النقد الثقافي" مضللة ومدعية، ويقوم الجزء الثاني منها بمصادرة الأول، فالنقد والنقاد وكذلك المناهج النقدية تمارس فعلا ثقافيا، لأن النقد أصلا هو

فعل الثقافي، فما الحاجة إذن إلى تقييده مرة أخرى بوصف ثقافي؟ وهل هذه صرعة من صرعات الجري أو تخيل الجري إلى ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية؟ لقد مارس النقاد عبر مسيرتهم التاريخية فعلا ثقافيا، هكذا فعل أرسطو، ولونجينوس، وهوراس، وريتشاردز، وعبد القادر الجرجاني، وحازم القرطاجني، وغيرهم، وهذا الفعل الثقافي ربما كان محدودا بثقافة لغوية وعروضية، أو ممتدا إلى ثقافات منطقية وفلسفية وجمالية وهكذا دواليك، حسب ما جادت به معارف عصر كل واحد منهم فالناقد دائما يسعى إلى اكتساب المعارف الجديدة وتطوير أدواته، وهذا ما حدث مع كبار النقاد من أمثال رولان بارت.

وصحيح أن الثقافة في بعدها الثاني أعم وأشمل من النقد، ولكن النقد الذي يسائل أدواته هو الذي يطوع الثقافة لمصلحته ويدخلها دائرته، فتغدو جزءا من الفعل النقدي الذي يساير الثقافة ويستوعبها، وكأن الناقد يحول التعارض بين النظام ممثلا في النقد التقليدي والثقافة إلى تجانس يخدم الممارسة النقدية.

إن ممارسة النقد لنشاطاته المختلفة، بدءا بالشرح و التفسير أو البحث عن المعنى أو القصد، ومرورا بالتذوق وإبراز الجماليات ووضعها في سلم القيم الجمالية، وانتهاء بتأجيل المعنى وترك فرصة للقارئ لملء فجوات النص و فرغاته، ما هي إلا ممارسة ثقافية دخلت في مملكة النقد التي هي خلاصة المعرفة التي يتم التصرف بها من خلال كفاءة الناقد وقدراته على إذابة وصهر مجمل العناصر الثقافية والإفادة منها نوعيا، إن عمل الناقد في هذه الحالة ليشبه عمل الشجرة التي تمتص غذاءها عبر عملية التمثل الكلوروفيلي، ثم تعيد توزيعها أوراقها وأغصانا وثمارا.

إن ملاءمة الثقافة للنقد أو خضوع الثقافة للنقد يبدو طبيعيا في ظل الحديث عن ثقافة النقد وثقافة الناقد والناقد المثقف و النقد المثقف.

أما تقييد النقد بالثقافي فيشكل انحيازا شخصيا، ودعوة للانغلاق و المحدودية، دون أن تقدم بديلا فاعلا يتصف بالموضوعية، وينأى عن التحيز والذاتية. ومن حق الدارس أن يتساءل أي ثقافة سوف تسود "النقد الثقافي"؟ هل هي ثقافة الخاص أم العام؟ ثقافة الهامش

أو المركز؟ ثقافة النخب أم العامة؟ ثقافة المصالح الشخصية الذاتية أم ثقافة الطبقات الكادحة؟ ثقافة الذكور أم ثقافة النساء؟.

ويبدو أنه من الصعب، بل يكاد يكون من المستحيل، فك الارتباط بين ما هو نقدي و ما هو ثقافي مع الإشارة إلى أن كل ماهو نقدي هو بالضرورة ثقافي، والعكس ربما لا يكون صحيحا.

والنقد الثقافي صرعة من صرعات الفكر الغربي في جريه ولهاثه المستمر نحو تجاوز الحداثة وما بعد الحداثة. وينظر إليه بوصفه مظلة واسعة تضم تحتها الاتجاهات النقدية الغربية كالتاريخانية الجديدة، والمادية الثقافية، وما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي، ويتبنى منظرو النقد الثقافي على اختلافهم، مشروعا نقديا يؤكد أهمية العودة إلى النص و الإفادة من كل ماتنتجه السوسيولوجيا والتاريخ و السياسة و المؤسساتية، والنقد الثقافي بذلك يحاول أن يتجاوز التصنيف المؤسساتي للنص بوصفه وثيقة جمالية إلى الانفتاح على الخطاب بوصفه ظاهرة ثقافية أوسع، له نظامه الإفصاحي الخاص، ولا يمكن قراءة النقد الثقافي إلا ضمن مظلة أوسع ورؤية مختلفة عما أرادها الغذامي، فالنقد الثقافي موجة من حركة أوسع تضرب بجذوريها إلى المركزية الثقافية الغربية التي تتحدى الآخر وتهمشه ولا تعترف به، وتذهب إلى أبعد من ذلك بالمطالبة بالتعددية الثقافية " السود بإزاء البيض" و "النسوية بإزاء الذكورية" ونبذ كل ما اصطلح عليه بـ "التيار المؤسساتي الرسمي" ومن هنا تحدث "فينشت ليتش" عن النقد الثقافي بوصفه نقدا يتجاوز البنية و ما بعدها و يفيد من مناهج التحليل المختلفة كتأويل النصوص ودراسة الخلفية التاريخية بالإضافة إلى إفادته من الموقف الثقافي النقدي و التحليل المؤسساتي.

النقد الثقافي يعني التوسع في مجالات الاهتمام و التحليل للأنساق، إذا لم يعد الأدب بالمفهوم التقليدي هو السائد غالبا في مجال الدراسات التحليلية والنقدية وإنما غدا في بعض الدراسات المعاصرة جزءا من كل أكبر وأوسع وأشمل، حتى سمي هذا الكل: الدراسات الثقافية بما تعنيه الثقافة التي قد توجز بأنها مكون معرفي شمولي يرصد حراك الإنسان وفاعليته في إبداعاته وإنجازاته بتخطيطات ذكية، ودوافع عقلية ومواقف فكرية ، ونوازع

شعورية متنوعة ومعقدة، تصدر عنها و تقاس بها جميع اهتمامات الإنسان وعلاقاته وإنجازاته مادية كانت أم معنوية .

إن النقد الثقافي نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بذاته، بمعنى أن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم و النظريات على الفنون الراقية و الثقافة الشعبية، والحياة اليومية وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة، فإن النقد الثقافي هو مهمة متداخلة و مترابطة متجاوزة ومتعددة، كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكارا ومفاهيم متنوعة ، وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب و الجمال والنقد، وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، و بمقدوره أيضا أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي و النظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والإنثربولوجية...إلخ ودراسات الاتصال، وبحث في وسائل الإعلام، والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة وحتى غير المعاصرة.

مراجع المحاضرة:

- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي" قراءة في الأنساق الثقافية العربية"ز

- ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي.

- عبد الرحمن عبد الحميد على، النقد الأدبي بين الحداثة و التقليد، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2005.

- حميد حمداوي، نظرية النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مكتبة سلمى الثقافية، الرباط، المغرب ، ط1، 2015.